إمكانيـــة التلقـــي

مدخل لمشروع محمد عبد الرحمن حسن (بوب)

إعداد: أ. حســـان الناصـــر

تاريخ النشر: ١٥ / ١٠ / ٢٠٢٢م

توطئة:

ظلت ملامح الفلسفة في السياق السوداني تختفي وتظهر كأنجم خلف غيوم ثقيلة، أثرت عليها طرق التلقي والتفكير المرتبط بالمنطق الذي تعمل الحداثة من خلاله، قد تكون محمد عبد الرحمن بوب من خلال رحلاته السياسية و الأكاديمية ما بين الفنون الجميلة و النقد و الاتجاهات الحداثية في أنساق اليومي الذي يعمل فيه.

تأتي هذه الورقة كشكل مفارق لما يمكن التعاطي معه من اشتغلات قدمها محمد عبد الرحمن حسن خلال خمس وعشرون عامًا من البحث في الفلسفة الأوربية و المخطوطات التي نادرا ما تظهر للقاريء / الدارس لهذه الفلسفة (الأوربية). وهذه الورقة ليست تعريفًا بالمشروع لأنني ضد أن يقدم مشروع ما للقاريء بل على القاريء أن يكتشف المشروعات، وهو فعل نابع من القلق الذي يجب أن يطمح الى إسكاته لأنه سيكون نابعا من سؤال ما، وكما أنه ليس استعراض لكتاب واحد أو مجموعة من الكتب، لأن طبيعة المشروع لا يمكن التعامل معها كإستعراض أو عرض لأن النقاش سينتقل الى (ورطة الأفق الحداثي نفسه في التفكير) خصوصا وأن القراء ينتقون من الفلسفة

tasees.org info@tasees.org @TaseesCenter
"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

الأوربية ما ساد عنها واشتهر فيدخلون إلى العموميات، وهو ما يبطل فاعلية النقاش مع مشروع بوب.

لهذا كانت هذه الورقة في محاولة البحث عن الاستراتيجيات التي كتب بها المشروع، و الطبيعة التي نظم من خلالها بوب حججه التي طورها الى معاول وأسلوب حفريات.

مقدمة:

تأتي هذه الورقة بعد مجموعة من المناقشات التي طرحت لمشروع الدكتور محمد عبد الرحمن (بوب)، ولقد تناولت العديد من المناقشات التي انتظمتُ فيها سواء مع (بوب) بصورة مباشرة أو مع مجموعة من المباحثين، و الذين طرحوا مجموعة من الأسئلة المهمة و الضرورية التي من خلالها تكشفت العديد من الأسئلة المركزية التي من خلالها أظن أننا يمكن أن نقول بأن مشروع الدكتور _و الذي صدر في خمسة كتب عنوانها الأساسي (من نقد الحداثة إلى نقد الحضارة) _ قد بدأ في إثارة الأسئلة المربكة و التي تعيدنا إلى النظر و إعادة التفكير في الأسس التي ننطلق منها تجاه الفلسفة المُنتجة في سياقات متعددة و بالتحديد المُنتجة في سياقها الأوربي.

وقد أوضحت هذه المناقشات عن مجموعة من الهموم و الإشتباكات المعرفية لمن تناولوا المشروع بصورة جدية، إلا أنني أرى أن هناك خلل في شكل التلقي للنصوص التي أنتجها(بوب) وهذه الرؤية ليست مصادرة لحق القراءة و تأويل النص الذي يقرأه أي دارس أو باحث، وليست دفاعاً عن المشروع، فالنص مفتوح لتعدد القراءات؛ وفقاً لموقع الباحث و منظوره و الهم الذي ينطلق منه، بالإضافة إلى أن هناك الكثير من النقد الذي يمكن أن يجعل هذه المدارسات تخرج من خلال تلقي المشروع وتطويره من خلال الاشتغالات عليه .

إلا أنني في هذه الورقة أحاول أن استنتج استراتيجية جديدة في تلقي النص من أجل الوصول إلى مكامنه، وفقًا لما فهمته من خلال الإطلاع على النص و استخراج تقنياته منه، و قد حاولت أن اختبر هذه الاستراتيجيات في العديد من الاشتغالات البحثية الأخرى التي كرست لها جزء من الوقت، خصوصًا تلك المتعلقة بالدراسات الحضرية وفهم المدينة الحديثة في السودان.

تحاول هذه الورقة إذن أن تستخرج المفاهيم الأساسية التي استند عليها بوب في مشروعه، فالكاتب يرى أن هذه المفاهيم ضرورية في قراءة المشروع، ومن الضرورة وضعها دائماً في الخلفية التي ندخل بها على النص، تتناول هذه الورقة شرحا لمشروع (بوب) وفقا لهذه المفاهيم، ومن ثم توضح هذه المفاهيم بناء على ما جاء في المشروع و مدونته (الكتب الخمسة) بالإضافة إلى مجموعة من المقالات التي نشرت في العديد من الدوريات العربية. و التي سنوضحها في أسطر هذه الورقة.

بالإضافة لذلك سيرى القاريء أننا قد استندنا على مدونة بوب فقط ولم نورد أي مصدر آخر وهي تقنية أقرب إلى القراءة المغلقة closed reading وهي شبيهة بالتي نقدمها في قراءة القصة أو الرواية كمحاولة لفهم معمق للعمل. وارجو أن يفهم القاريء أن هذه الورقة وإن حاولت أن تكون أكاديمية إلا أنها ترفض الانصياع لقوانيين المؤسسة الاكاديمية التي ورثت عن الاستعمار أو القواعد و الأسس و المعايير التي توضع للنشر، لذلك انطلقت من أفق التفكير الذي قامت بدراسته.

تبدأ هذه الورقة بتوضيح المفاهيم التأسيسية في نص (بوب) وأولها الموقع الذي من خلاله انطلق الدكتور في مشروعه، فالموقع الذي بدأ منه التفكير مهم في توضيح تدفقات النص الذي حاول من خلاله شرحه، فالإحداثيات و المقولات التي وفرت لبوب مساحة التفكير

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

ومن ثم استعراض الإشكاليات المتعلقة بالتفكير الأوربي تجاه الجنوب مهم جدا، و أهميتها أنها توفر البنية العميقة التي من خلالها نشرح النص.

المفهوم الثاني هو المنظور فإن كان الموقع يتيح الحيثيات لبوب في اتخاذه نقدًا، فإن المنظور هو التقنية التي تسمح له بمشاهدة هذه المكاشف و النصوص الفلسفية، وهي التقنية التي تسمح له بأن يكشف مقولة التفكير التي تضمرها النصوص التي استخدمها في الإستدلال على مقولة التفكير الأوربي و سياقه التي كشف من خلاله علاقة السياقات الاستعمارية بالنصوص الفلسفية .

إن كان الموقع و المنظور هما ما جعلا بوب يدخل على التفكير الاستعماري لنصوص الفلسفية وبنيتها فإنه بذلك يمتلك موقفاً وهو النقطة التي يمكن لنا أن ننطلق منها لداخل النص المنتج في مدونة (بوب)، لذلك من المهم التفكير في الموقف، الذي من خلاله تقودنا كل هذه النصوص إليه. إنني لا أحاول بذلك تحديد حدود للمفاهيم أو اهمال بعضها و التركيز على الآخر وإنما أنتج بذلك قراءة جديدة لبوب مختلفة وفقاً للبنية الكلية التي يحاول المشروع أن يظهرها. سنحاول أيضاً أن نبحث داخل المشروع عن أهم نقطة يمكن من خلالها أن نطل على شرفات بوب النقدية وأين أكثر نقطة يتكثف فيها المشروع ثم يتكشّف للقارىء؛ فهناك نمط ما يظهر في تدوين بوب وهي حالة أقرب إلى حالة الصهارة التي يمكن تتبع تراكماتها طوال خطوط (التَبريد) ومن ثم يمكن أن نجد التراكمات المعدنية الثمينة في منطقة معينة ومحددة وربما كان هذا الأسلوب نتيجة للاستضيحات المكثفة التي وضعها (بوب) للقارىء حتى ينقله إلى الفكرة الأساسية التي يريد توضحيها وهو أسلوب مهم جداً خصوصًا وأن التلقي في شرط أكاديمي و اجتماعي كسياقنا السوداني مرهق للكتاب ولمن يحاول صك أفكاره، فبوب إذن لا ينفصل تفكيره و طريقة كتابته عن هموم واقعه الاجتماعي الذي تخرج إليه الأفكار.

مشروع بوب:

«في تعريفه يبيّن كتاب (ذاتيات) أنَّ معظم الفلاسفة الأوروبيين لم يكتفوا بالتنظير لأشكال التميز المختلفة من عنصريَّة وعِرقيَّة واستعلاء ثقافي، لكنهم وصفوا تفكيرهم هذا بأنَّه يتوافق مع قيم الحريَّة والعدالة. وصارت المفاهيم المحوريَّة في الفلسفة الأوروبيَّة، مثل: العقلانيَّة والموضوعيَّة والعالميَّة والكونيَّة تدعم التميز، بما أنَّها تمنح الإنسان الأوروبي وحده مكانة مَن "يمثِّل كمال الإنسانية"، حسب قول إمانويل كانط. ولأنَّ الفكر الفلسفي الأوروبي، الموصوف بأنَّه (حديث)، ظلَّ يصطنع فروقاً بين الأُمم تدعم مشروع السيطرة الذي خدم عمليَّة تحديث أوروبا؛ فإن فضَّ سُلطَة هذا الفكر لا بدَّ أن يقود إلى فضِّ سُلطَة فكرة الحداثة، بوصفها جزءاً من مشروعٍ حضاريٍ داعمٍ للتميز بين البشر، وهذه هي المَهمَّة التي يحاول أن يساهم فيها هذا الكتاب».

إن بوب في "ذاتياته" لا ينطلق من مفاهيم أو تأسيس نظري بل يحاول أن يكشف من خلال موقفه من الخطاب الفلسفي الأوربي التناقضات التي يفرزها هذا الخطاب بإتصاله بسياقه و واقعه الاجتماعي، كما أنه يكشف مكامن التناقض بين الفكر الفلسفي الأوربي و إدعاء قيم الكونية و الإنسانية ؛ فهو لا ينفي هذه القيم أو ينكرها وإنما يبين من خلال موقف الخطاب شكل الإدعاء الذي يتم من خلال الفلسفة في سياقها الأوربي.

فالفلسفة عند بوب ليست منزوعة من سياقها أو تعالج قضايا منفكة عن المجتمع بل هي جزء من شرط محلي، ولا يمكن أن تكون عالمية إلا من خلال ما هو محلي، ومن هنا نرى أن بوب ينفي عالمية الفلسفة الأوربية و كونيتها ويجعلها خاضعة لشروط أوربا المحلية و مشاكلها التي من

خلالها عالجت النصوص الفلسفية الواقع.

بوب لا ينفي عالمية و كونية الفلسفة الأوربية وإنما أيضاً ينزع عنها صبغة الحداثة خصوصاً وأن الكتاب بدأ مع رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) و الذي يعد فاصلاً بين فلسفة العصور الوسطى و الحداثة، إذن بوب يطعن في مقولة الحداثة كمسلمة و ارتباطها بالفلسفة الأوربية، وهو طعن ليس في الخطاب وحسب وإنما في التحقيب و التاريخ ويحولها إلى مجرد إدعاء.

إن بوب يرى أذن من موقعه كمتلقي ليس للخطاب وإنما ما أفرزه هذا الخطاب من خلال سياقه الاستعماري و الاستعباد الذي تم للمجتمعات جنوبا فهو يقف من ذات موقفه الذي نقد منه الفلسفة الأوربية، فهو لا يفصل أو يجرد فكره من واقعه الذي شكله، وهنا تكون القراءة لبوب من الواقع الذي شكل ونسج هذا الفكر و التفكير. لذلك يتشكل من خلال موقعة فكر بوب أداته التي يمكن أن تكشف ما يحاول قوله، وحتى النقد الذي يمكن أن يقدم له، لن يرتبط بذلك بصيغة دفاع عن الفكر و الفلسفة الأوربية وإنما يكون نقداً من ذات التلة التي يقف عليها بوب و الفكر و الخطاب الفلسفي الاوربي.

إن كان "ذاتيات" يوضح موقع بوب، فإن "ثورات" يفضح كيف نسجت السردية التي على أساسها يتم مسح جميع المواقف الأخرى و مواقعها ليتشكل المنظور الذي من خلاله لا نستطيع إلا أن ننظر إلى كونية الفلسفة الأوربية و إنسانيتها تحت مسمى الحداثة، « يرصد كتاب (ثورات) ارتباط كتابة الأوروبيّين لتاريخ العصر الحديث ببلوغ سيطرتهم على العالم قمّتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فبعد أن أدركوا أنّهم يعيشون تقدُّماً كبيراً نتج عن غزوهم للعالم واستغلال ثرواته؛ دبَّر المؤرّخون قصص ثورات متعدِّدة نسبوا إليها نقل العالم إلى عصر حديث، للتعتيم على جانبه المُظلم. وعند النظر إلى الحداثة من هذه الزاوية يتَّضح أنَّ الحدث المؤسِّس لها لم يكن هو ظهور "مجتمع العقلانية والعلم والصناعة" كما تقول الرواية الغربية الشائعة، وإنَّما هو مشروع السيطرة على العالم وشعوبه وثرواته، وهو مشروع مازل مستمرًّا إلى اليوم. ينتقد هذا الكتاب الرواية الغربية لنشأة العصر الحديث موضِّحاً مضامينها وظروف نشأتها، والوظيفة التي تؤدِّيها في التحكُّم بعقول نُخَبِ بلاد الجنوب ».

يحاول بوب أن يبحث في طرق السرد و التقنيات التي أنتجتها أوربا حول تاريخها الذي عممته على مستويات تاريخ العالم لتظل السردية محصورة في نطاق أوربا، من هنا يأتي التعتيم الذي يتم على تواريخ الحضارات و المجتمعات خارج أوربا وليكون المنظور متجهاً شمالاً دائماً و ينسينا تاريخنا الذي من خلاله تشكل وجودنا، و الذي لم نعد نعرفه أو نفهمه إلا من خلال منظور الشمال.

يظهر أيضاً اصرار بوب على نزع صيغة العالمية عن التاريخ الأوربي و الذي يضعه ضمن حدود مشكلات أوربا ومحاولة حل هذه القضايا الاجتماعية التي اصابتها، ولا يُعنى بهذه السردية سوى الأوربي وجعلت هذه السردية من بقية العالم تابعاً لأوربا.

إن محاولة "ثورات" هي إنتاج منظورات جديدة تجاه السردية الأوربية، وكما يشير بوب فإنها ليست أوربا كلها بل أوربا الغربية فقط هي من أمتلكت التاريخ وعممته كمتلازمة لعمل الاستعمار الذي قامت به في بقية العالم. وأهم مافي كتاب ثورات هو فضح بوب ارتباط الثورة الصناعية الأوربية مع الاستعمار الذي قامت به لبقية مجتمعات العالم.

و يوضح بوب في كتابه الرابع نقطة مهمة وهي كيف صاغت أوربا تاريخها؛ أي أن أوربا نفسها لم تمتلك هذا التصور من تلقاء وعيها أو تفكيرها في العالم بكل كانت جزء من

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

حركة تاريخية شهدتها المناطق التي تحف أوربا خصوصا و أن البحر الأبيض المتوسط كان جزء من حركة تجارية و معرفية و حملات طويلة سعت العديد من الامبراطوريات للسيطرة عليه، فتولد عن أوربا هذا الشكل من التفكير، الذي من خلاله بنت أساطيرها التي تقول عنها موضوعية و علمية، خصوصاً ما يعرف بالكشوفات الجغرافية Geographical disclosures والتي حاولت أن تؤسس لتاريخ المجتمعات من خلال لقاءها بأوربا عبر الرحلات التي قام بها مجموعة من البحارة. وفي هذا يشير بوب في (اكتشافات) الى إنَّ «الطريقة التي كُتب بها تاريخ صعود أوروبا إلى العصر الحديث، والتي تقول إنَّها انبعثت من ذاتها بعد أن قامت بإحياء تراث الإغريق، تتطلَّب فحص هذا الخطاب التاريخي ونقد فكرة (النهضة)، التي انتقلت إلى كثير من الأُمم غير الأوروبية وأشاعت أنَّ التقدُّم لا يكون إلا بالعودة إلى الماضي، لأنَّ التصوُّر الذي أرساه الأوروبيون للتطوُّر هو أنَّه ينشأ عن استعادة الأمم لماضيها. وفي معظم بلاد العالم التي خضعت للاستعمار، اعتقدت النُخب الوطنية التي تلقَّت تعليماً أوروبياً بوجوب تحقيق التحديث انطلاقاً من نهضة تحقِّق عودة إلى تراث أصيل، اتِّباعاً للتصوُّر الأوروبي.

عبر دراسة تحليليَّة لخطاب النهضة والثقافة المادِّية والفنون البصرية في أوروبا، يبيِّن هذا الكتاب أنَّ أوروبا لم تتطوَّر لأنَّها استعادت تراث الإغريق أو الرومان، أو لأنَّها مرَّت بعصر نهضة أو حقَّقت (اكتشافات) جغرافيَّة؛ وإنَّما تطوَّرت لأنَّها تفاعلت مع حضارات متقدِّمة كانت مزامنة لها عند بداية صعودها، أبرزها حضارة شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسِّط، التي اقتبست منها أوروبا كثيراً. «

إذن لا يمكن أن تنفصل أوربا عن تأثرها بالحضارة الشرق أوسطية و الجنوب أوسطية لذلك من المهم توضيح علاقتها بهذا الأث الذي تأثرت به ومن هنا يمكن لنا أن نخلق موقعا لفهم أوربا من خارج سرديتها التي تصور تاريخها على أنه تاريخ العالم.

قد يرى القاريء أنني أهملت كتابه الثالث (فتوحات) ولكن تركت هذا الكتاب عمدا لأعود إليه في آخر الوقعة لأبني به استراتيجيتي في شكل تلقي المشروع ومن ثم موقعته فالتقنيات التي قدمها بوب في قراءة النصوص التاريخية ستساعد على بلورة التقنيات و الاستراتيجيات التي يمكن استخلاصها من المشروع.

تغيير الموقع:

إن في تناول فكرة بوب تجاه الموقع أمر مهم جدا وهنا سأركز على الفصل الخامس من كتابه الأول كشوفات، فالتقنيات التي أوردها بوب في الارتباطات الفلسفية بين مفكري النهضة و صعود أوربا بالتزامن مع استعمارها من خلال الكشوفات الجغرافية يوفر إمكانية عالية في ايجاد الترابط بين ما كشفه في النصوص الفلسفية لفلاسفة هذا العصر و لفلاسفة أوربا المعاصرين.

ففي الفصل الخامس نجد مقولته الاساسية و التي تقول بأن:الفلسفة الأوربية أعلت الحقيقة بإسم العقل وأن أي وجهة نظر أخرى تعارض الفكر الأوربي لم تعد تقبل لأنها صادرة من نمط تفكير غير علمي واصبحت المفاهيم المحورية في الفلسفة الاوربية مثل العقلانية و الموضوعية و العالمية و الكونية تدعم التميز، ويقول بوب إن فض سلطة هذا الفكر لأبد أن تفض سلطة فكرة الحداثة بوصفها مشروع يساهم في التميز بين البشر.

وهذه المهمة التي يحاول هذا الكتاب تقديمها هي أن يبحث بشكل معمق حول النقد الذي قدم للفكر وللفلاسفة الأوربيين، إلا أنه في الفصل الخامس يشير إلى سارتر في أشكال الإنتقاد التي قدمها للفكر الأوربي سواء في جوانب

القهر المرتبط مع الاستعمار أو في الاستغلال الاقتصادي ونظم الهيمنة على المجتمعات المستعمرة، ولكن بوب يعلنها أنه لم تكن لتتحقق لولا خروج سارتر وإنقلابه على الفكر الأوربي ومن هنا نجد أنه استفاد من تيارات الجنوب التي نشأت في حقبة خروج كتابات جون بول للنور، وكيف أنه اقتحم الجنوب ليطور نسقا للتفكير من خارج أوربا.

هنا يمكن لنا أن يتضح موقف بوب الملتزم مع موقفه من المعرفة الأوربية وفكرة التميز؛ حيث يكشف كيف أن فوكو قد صاغ نظرته و مختبره المعرفي على أساس فكر أوربي خالص لم يجعله ينظر أبعد من أوربا بالرغم من أنه حاول أن يحلل الهيمنة و ينقد التنوير وكيف أن هذه الأدوات قد ساهمت في خلق شبكات وانساق من السيطرة، كل هذا لم تجد المستعمرات في فكر فوكو حظها من الإشتغال رغم أنه شاهد على سياسات فرنسا الاستعمارية في إفريقيا وكان شاهدا عليها.

نجد أن بوب حاول أن يربط ما بين فكرة كانط حول الإنثروبولوجيا وظهور المواطن الكوني (الأوربي) وبين اشتغالات فوكو التي لا ترى الآخر رغم أن تمثلات هذه الهيمنة موجودة خارج أوربا بصورة اكثر وحشية و قربا من نموذجها، وهنا نجد إشارة بوب الى إسبيفاك و هومي بابا.

لم يقف في حدود فوكو بل ذهب بإتجاه دريدا باعتباره الضلع الذي يكمل ثالوث فرنسا النقدي، وأن كانت هذه العبارة مجازية بافتراض أن هناك فلاسفة آخرين مهمين مثل دولوز، حاول بوب بمداخلته تجاه دريدا حول موقفه من المعرفة الغربية؛ حيث يكشف أن نقد دريدا في مستوياته المختلفة و التي خلص فيها إلى أن سمات الخطاب الأوربي بما فيها الخطاب الفلسفي تعتمد على علاقة فرقية بين عناصر محددة واحتلال تلك العلاقة مركز الخطاب واضطلاعها بملء المركز بالمعنى.

و وجد أن دريدا بتفكيكيته ظل أسير فكرة قلب التراتبية يعني أن تبقى أسيرة منطق الفرق وكل ما ستفعله هو تبديل العناصر ورغم قلب تراتبية العناصر في النص إلا أنها تظل في الشرط الاجتماعي وتعيد إنتاجها من جديد؛ لذلك نجد دريدا قد صمت حسب وصف بوب تجاه أي خطاب جذري لفكر التميز.

يتضح ما بين المقدمة لكتاب" ذاتيات" و الفصل الخامس منه أن بوب قد تحرك في موقع المشاهد و الناظر إلى النص الفلسفي من حيث قرائته كما يكون داخل النسق الأوربي إلى الموقع الذي يمكنه من ربط كل هذا النسق في التفكير ليربط كل هذه النصوص مع اللحظة التي أعادت فيها أوربا كل هذا الركام من خلال تاريخها الاستعماري مع بقية العالم.

تركيب المنظور:

يبدأ المنظور من الموقف التأويلي الذي يمكن أن يقول عنه القاريء أنه ديناميكية النقد الاوربي / الأوربي، إلا أن المهم في هذا الجانب هو توضيح شكل القراءة التي بقوم بها بوب، و التي تحولت لمحاولة لأن تصبح منظور ما قبل أن تتحول إلى عملية تاويل و كتابة و نقد كارضية محايثة، وهنا يمكن لنا استخراج شكل منهجي من داخل القراءة المغلقة للنص، ويحيلني هنا إلى فكرة تركيب المنظور و التي هي أهم فكرة تأتي داخل مقدمة ذاتيات أن ننظر من داخل سياق و ليست هي عملية احتكام لشرط (أعني به الشرط الأوربي للتفكير داخل النسق و النص الفسلفي) خارج هذه الشروط وحسب وإنما عملية إعادة فهمة من خارج الحدود من حيث انا أنظر و أشاهد وأعيش و أكون نظرة ما للعالم، موقف من كل شيء هنا نكون في خط واحد مع كل فلاسفة أوربا، و تكون السياقات هي السياقات، لا فرق بين برلين / فرانكفورت و بين جزيرة

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

صغيرة على النيل أو واحة في صحراء بيوضة، وهنا رد لأعتبار التفكير الذي يقوم به بوب به بحيث لا يصادر بحجة السياق وإنما يؤكد من خلال إعادة فهم المنظور.

يقودني تركيب المنظور إلى الموقف ، وكأن هناك حركة داخلية حدثت، هناك تقنية مهمة تشكلت أظنها أهم من مسألة النقد في حد ذاته للنص الفلسفي، هذه التقنية هي مهمة ليس في نقد الفلسفة الأوربية فقط وإنما أيضاً في كل المتشكل عبر تاريخنا الحديث (إن جازت التسمية) يمكن لنا عبرها أن نقرأ التاريخ و المعمار و الفن، والأدب، لأننا نخلق عدسة توفر لنا أبعاد مهمة في قراءة (اللوحة / النظرية / الخريطة / السياسة).

إن المنظور ليس جزء أمنفصلًا من السياق الاجتماعي كما أنه ليس مرتهن له ومتكلس نحوه، إن المنظور له خاصيته في النقد المزدوج الذي يقدم للموقف الذي يبنى عليه ومن ثم الإتجاه الذي يشاهده، نقد بوب للمنظور يوجد في الكتاب الخامس (نقد فكر الجنوب العالمي) والذي ربما ينشر بعد فترة قصيرة من تاريخ كتابة هذا المقال. ونجد أيضاً في ثنايا بعض مقالاته التي نشرها في العديد من الدوريات، وإن كانت هذه الورقة ليست مخصصة لهذا الجانب الذي نجد فيه ارتباط ما بين طرائق التفكير عند بوب و بين استراتيجيات النقد التي نحاول امساكها داخل المشروع.

استر اتيجيات النقد عند بوب:

في استراتيجيات النقد عند بوب لأبد من أشير إلى المقابلة التي أجريتها معه في أبريل ٢٠٢٢ م والتي نشرت على منصة حوارات جيل الثورة ، والتي تناول فيها بوب مسيرته الشخصية وعلاقة أفكاره في الفن التي من خلالها طورها نحو الفلسفة، حيث يجيب على سؤال:كيف أثرت الفنون على مسيرة بوب ؟ فيجيب: الفنون تبدأ من التجربة، ومن الملاحظة. وهو ما حرص أساتذتنا عليه أي أنهم لم يقدموا لنا منهجاً، وهو ما كنا نرفضه لأنه يجب أن يكون هناك منهج، وهو ما قوبل بالرفض، وهذا يعيدني إلى أن ليس كل ما طرحناه في فترة الشباب صحيح، بل الخبرة تلعب دورا مهما، ولقد زادت حساسيتي مع مرور الوقت تجاه مقولة المنهج، لأنه معطل لأي عملية نقدية وهنا علينا أن نذكر كتابات بولا و حسن موسى، حول الفن كما مقولة بولا:(الإنسان بطبعه كائن خلاق) لذلك نجد أن بولا يقدم مداخلات في كل مجالات.وأذكر هناك لقائي مع بولا كان من خلال مقالاته في فترة السبعينات، والتي اطلعت عليها في العام ١٩٨١م، سمحت لي هذه الكتابات بالتعامل مع كلية الفنون من الخارج، فكنت أناقش أفكاره، هذا النقاش حول طبيعة تعاملي مع الكلية إلى حقل طرح للأسئلة أكثر منه البحث عن إجابات.

إن استراتجية النقد من خلال ما طرحه بوب في الإجابة على هذا السؤال تبدأ من رفضه لمقولة المنهج، فهو لا يثق في المنهج بإعتباره نظام تفكير يعيد إنتاج الأفكار و المفاهيم في حدود ونسق معين مما يجعل إمكانية الخروج عنه صعبة وتتحول إلى سجن ضمن انساق لا يمكن أن تسمح بالخروج عنها، وهو ما يتوافق مع ما طرحه في الكتاب الثالث (فتوحات) يرى معظم المؤرِّخين والمفكِّرين الغربيِّين أنَّ معرفة الشعوب غير الأوروبيَّة بتاريخ العالم ليست أكثر من أساطير؛ بينما يصفون معرفة أوروبا بأنَّها ذات طبيعة علميَّة وموضوعيَّة. لكنَّ تحليل روايات الأوروبيِّين لأحداث فاصلة في تاريخهم الحديث يوضِّح أنَّها ليست ذات طابع أسطوري فقط، وإنَّما هي متلقَّاة عن مصادر تاريخيَّة تعود إلى حضارات أخرى. فقصص فتوح الإسبان لممالك شعوب أميركا (الأزتك والمايا والإنكا)، وغزو نابليون للشرق الذي لم يحقِّق فيه نجاحاً يُذكَر، ووصول الإنجليزي جيمس كوك إلى هاييتي وأستراليا، الذي يعدُّه الأوروبيون (اكتشافاً)؛ كلّها أحداث صِيغت لها صورة نجاحات خارقة باستعارة قالب قصص

"الأراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن إدارة مركز تأسيس للدراسات والنشر"

الفتوح الذي ورثه الإسبان عن حضارة شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسّط (الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة). بتحليل النصوص المعتمدَة لدى المؤرّخين الغربيّين حول هذه الفتوحات؛ يوضِّح هذا الكتاب الطابع الأسطوري لخطاب المعرفة الغربيَّة الحديثة.

فبوب هنا يكشف التمايزات بين المعرفة الأوربية و غير الأوربية التي أقامها المؤرخين و الفلاسفة الأوربين، والتي انطلقت من تصورات على أن المعرفة غير الأوربية هي مجرد فلكلور أو تراث من اساطير وأنها غير علمية، الأمر المهم في هذا الكتاب أيضاً ليس كشف زيف هذا الإدعاء وإنما الإنقلاب على السردية من خلال منهجية مختلفة ومغايرة، وهنا نجد بعض التقنيات الفنية أو الأدبية في تفكيك النص التاريخي وكشف تناقضاته.

المهم في هذه الاستراتجية هي ربط السرديات مع سياقها وهي محاولة العودة إلى منابع النص الذي خرجت منه السرديات، فتقنيات إلتقاط الملامح التاريخية و الاجتماعية داخل النص كانت ميزة جعلت من هذا الكتاب محاولة لإعادة ترتيب الطبقات داخل النصوص ومن ثم ربطها بخيط دال واحد، وليس هذا وحسب بل يذهب بوب الى اكتشاف الملامح بين السرديات.

إن هذه التقنية أشبه بالحفريات الجيولوجية داخل الطبقات مما يذكرني بالعمل الذي نقوم به على الطبقات فهو لا يفهم الطبقات الحالية بل يحاول أن يقوم بتركيبها وإعادة تركيبها من جديد ومن ثم ربطها بالتكوين الجيولوجي الكامل للمنطقة، وهذه العملية لا تأتي بتصور مسبق يجزم بشكل الطبقات أو تاريخها وإنما يعيد من خلال النحت و الحفر بناء سرديتها من جديد.

الخاتمة:

حاولنا في هذه المداخلة أن نقوم بعملية تمهيد لشكل التلقي الذي يمكن لمشروع محمد عبد الرحمن بوب، و المشروع الذي أظن أنه في بدايته والتي ربما يكون الإشتباك معه بصورة أعمق من التي قدمتها إلا أنني حاولت في هذه المداخلة أن أركز على ثلاث مفاهيم ربما لو أهتم بها القاريء سيجد البوصلة التي تمكنه من التلقي ومن النقد أيضاً، وقد يرى القاريء في هذه الورقة أنني لم أتعرض للأنتقاد الذي يمكن أن نقدمه لبوب وهذا ما سيكون لاحقاً بكل تأكيد وضرورة النقد التي أتوق الى وضعها للمشروع بصورة كلية تأتي من استخدام هذه الاستراتيجيات من خلال مستويين الأول متعلق بالاشتغال على النص وعطب الاستراتيجية في مواقف ومناظير، ومن ثم هذه الاستراتيجية في مجالات أخرى، وكما بدأت هذه الورقة بأنها ليست مصادرة للقراءة أو لحق التأويل، بل هي محاولة من داخل الإمكانية التي تلقيت من خلالها المشروع.

المصادر و المراجع:

محمد عبد الرحمن حسن. ذاتيات: فض خطاب الفلاسفة الاوربيين للانسان و المجتمع. الخرطوم: وقف للتوزيع و النشر. ٢٠٢٠

المؤلف سابق ذكره . ثورات: فض خطاب التاريخي الاوربي. الخرطوم: وقف للنشر و التوزيع و النشر. ٢٠٢٠

المؤلف سابق ذكره. اكتشافات: فض خطاب النهضة واكتشاف العالم. الخرطوم: وقف للتوزيع و النشر. ٢٠٢٠

المؤلف سابق ذكره. فتوحات: فض وهم التفوق الأوربي: غزو أميركا والجنوب والشرق. الخرطوم: وقف للنشر و التوزيع. ٢٠٢٠